خطاب الشاعر الكبير محمود درويش في حفل التخرج الحادي والعشرين

كنت هنا منذ قليل في اول لقاء على هذه الارض، يجمعني بما كان فيّ من امس، وبما سيكون عليّ أن أكونه، في غد، بعد قليل.

في ساحة مجاورة لهذه الساحة ، في ساعة الغروب ذاتها ، شاهدت على مرآى منكم ،وربّما على ايديكم ، صورة ولادة معنوية جديدة لشاعر لم يالف أن يولد مرّتين ، وإن ألف ان يموت اكثر من مرة ، على طريق العودة الى البيت .

لا أحد يعود. لا أحد يعود تماما الى ما كانه والى ما كان فيه. لا أحد يعود الاّ جماعة او مجازا . ومجازا عدنا. فنحن في حاجة رمزية الى تحميل عودة الافراد بمدلولات عامة، فلعل ربيعا ما ، حقيقيا او متخيلا، يندلع من جناح سنونوّة واحدة .

لا لشيء نكابد هذا الفرح الصعب ، الاّ لاستنباط ما هو جوهريّ اكثر: عودة الروح الدائمة الى الارادة الضرورية لمواصلة السير الشاقّ الى الغد، لنتمكن من اجتراح معجزتنا الوطنية في تحريك هذا الحاضر من المكانة التاريخية المعدّة له، بكل ما في القوة من حماقة وخرافة ، للثبات في المعنى الجامد، وللقطيعة مع الزمن المتحرك .

ولا شيء في حياتنا جدير بأن يكرّم سوى حقّنا في حياتنا ذاتها .. حياتنا التي كدنا ان ننساها في زحام البحث عن معنى خارجها . وكان خارجها كثيرا ، الى حدّ خيّل لنا، معه، أنّ الوطن قد هاجر، فلم نكد نعرف هل نحن هنا ام هناك . وها نحن قادرون على الافتتان بحقيقة واحدة : ما زال المكان في مكانه.

لعل الحيرة هي الوصف التقريبيّ لحالتنا الذهنية الراهنة المحرومة من مرجعية المقارنة . اذ يراد لنا ان ننخرط، دفعة واحدة ، في مختبر الوعي التجريبي الذي لايعود بالصراع على الوعي الى اية معايير، سوى نزعة الآخر للتحكّم في نسيج وجودنا، وفي صياغة مصيرنا بطريقة لا تفتقر الى العدالة فحسب، بل تحفل بكل العوامل التغييب الكامل للذات، ذاتنا ، عن ذاتها .

إن الانتقال المفاجئ من مرحلة تاريخية محدّدة الى مرحلة شديدة الغموض، يغيب فيها جوهر السلام عن عملية السلام، وتسود فيها انقلابات المعاني والمفاهيم بطريقة فوضوية، هو ما يدفع الوعي العام الى عذاب الحيرة ، ولكنه لايعطل حيوية نشاطنا الثقافي ويهمّشه كما يقول المتشائمون منا، بل يعود به الى اسئلته المبدئية، وربما التقليدية حول علاقته بالواقع.

ليس هذا الواقع في حاجة الى المزيد من الشكوى والهجاء،ولا يستحق بالطبع أي ثناء. وليس من الطبيعي أن ننصرف، الآن، الى اسئلة التطبيع القصوى مع شيء أو أحد، وإلى الاستجابة للمطالبة بتطهير الذاكرة مما علق بها من لغة الصراع، وإلى تعديل حبكتنا التاريخية في اتجاه الاعتذار عن سيرتنا ، ما دام الاحتلال، المعلن والمبطن، الرسمي والعلني،جاثما على حياتنا، وما دامت المستوطنات تقطّع جسد الارض وتبتلعها ، وما دام الحصار يهبط بنا من سؤالنا الوطني الى بداثية الوجود ، وما دمنا محرومين من ممارسة حقنا المقدّس في السيادة والاستقلال والحياة الانسانية العادية.

فليس السلام سجنا او معسكر اعتقال.
وليست السلطة نقابة وطنية لإدارة شؤون السجناء،
وليس الوطن مشهدا طبيعيا للزيارة العابرة.

لقد مشى الفلسطيني طويلا على درب الآلام لبلوغ السلام الحقيقي العادل الذي يوفر له وللآخر ، شروط الحياة الانسانية والوطنية والابداع الحر. وقبل مبدأ التعايش المتكافئ على ارض وطنه التاريخي، استجابة لعملية التطور التاريخي الدامية التي جعلت من هذا الوطن بلدا لشعبين، بعدما دفعت بالشعب الفلسطيني إلى إحدى أكبر المصائر التراجيدية في هذا العصر.

ومن دون أن تأنس الضحية الى قدرها، وتصاب بداء التنافس على المكانة العالمية للضحية، كما فعل سواها ، لتبرير خروجه على المعايير الانسانية العامة،وتجريد ضحيته من مكانها ومن اسمها لتبرير الإمعان في انكار وجودها ، والاحتفاظ لنفسه باحتكار صفة الضحية التي أعطت لنفسها الحق في أن تكون جلاّدا مدجّجا بالسلاح النووي وضحية في آن.

من دون تقمص هذه النفسية وهذه العقلية ، أشهر الفلسطيني الأمل في وجه الالم ، وخاض معارك الدفاع عن اسمه وهويته وتاريخه وبلاده، ليحل البطل فيه مكان الضحية ، وليتمكن من تحقيق وجوده الانساني العادي في وطنه البسيط.

فهل تتيح ظروف هذا الواقع المأساوية بأن يتعايش مع ذاته الانسانية المنتقلة من صورة الضحية ،الى صورة البطل الى صورة العادي؟

لا عودة الى الوراء . ولكن، من أين لنا القدرة على جعل العدو ، الذي حوّلناه إلى خصم ، شريكا لنا في مواصلة السير إلىأمام؟

تلك هي معضلتنا . ولكن في هويتنا الحضارية ما يكفي لوضع هذا الحاضر في مكانته من التاريخ. وفي تجربتنا الوطنية الخاصة ما يحفّزنا على الايمان العنيد بأن من استطاعوا الصمود الفذّ في معارك الدفاع عن هويتهم ووطنهم في الحروب الخاسرة ، قادرون على الامساك بمستقبلهم في السلام الخاسر . فنحن لسنا قلعة محاصرة الى الحدّ الذي يتصوره الآخر . نحن جزء من محيط شاسع تشكّل القدس موضع القلب فيه . وفيه من عناصر القوة الكامنة ما يعيد الى عملية السلام ما تفتقر اليه من مبادئ العدل والمساواة والحرية .

ومهما كانت الحيرة ، أمام هذا الواقع، متأرجحة بين النصف الفارغ أو الملآن من الكأس ، فليس في وسع الثقافة أن تعيد النظر في طبيعتها ودورها . فبما هي معرفة ، هي عامل أساسي في تكوين الوعي . ومن هنا مكانتها في التعامل مع الواقع ، لا انسجاما ولا تكريسا، بل اسهاما في نشر الوعي الجماعي بضرورة تغييره . ولست هنا لأشيد بدور مثقّفينا ، وجامعاتنا وبخاصة جامعة بيرزيت ، في الدفاع عن ثقافتنا القومية وعن تحصينها ضد أخطار التشكيك بالذات . ولكني أود الاشارة الى سعة المجال التاريخي الذي ينبغي على مشروعنا الثقافي أن يتحرك فيه ، وهو مطالب بالامتداد على رقعة مجالات معرفية شاسعة في مقدمتها: حماية ذاكرتنا الجماعية ، وحقنا في سرد روايتنا التاريخية ، والدفاع عن وعينا التاريخي، وتطوير آليات التعبير عن انتمائنا القومي والانساني ، وتعميق ثقافة الديموقراطية والحرية والكرامة، ومفاهيم حقوق الانسان.

إن طبيعة أية ثقافة أصيلة ، باعتبارها وطنية وانسانية في آن، تجعلها قادرة على صيانة خصوصيتها وهويتها في الوقت الذي تتفاعل فيه وتتحاور مع الثقافات الاخرى التي تكون ، بمجموعها ، الثقافة العالمية .

ومن هنا ، فانها قادرة على التمييز بين ما هو انساني وما هو عنصري في ثقافة الآخر، وعلى ادراك المشترك الانساني الذي آن لنا أن نطوّر وسائل حضورنا الحيّ فيه، من موقع خصوصية متحررة من عقدة النقص ومن عقدة الانغلاق معا .

لا نريد أن نكون ابطالا اكثر

ولا نريد ان نكون ضحايا اكثر،

لا نريد اكثر من أن نكون بشرا عاديين.

الشكر لجامعة بيرزيت ، ادارة ومدرسين وطلبة على دورها السابق واللاحق في تنشيط حياتنا الثقافية والوطنية .

والشكر لها، الآن، على هذا التكريم الذي لا أستحق ، وان كنت سأبذل الكثير من الجهد لاكون جديرا به .

وللخريجين الجدد الذاهبين الى مستقبلنا المشترك منذ هذه اللحظة ، أعمق التهاني والتمنيات بالنجاح في مهمة صناعة الغد الأجمل ، وتثبيت المكان في مكانه ، بصمودهم في هذا المكان الذي لا مكان لنا ولا لأحلامنا سواه ، جحيما كان أم نعيما .